المبحث الثالث

علاقة يهود الخزر بدول الجوار

أولًا العلاقات العربية الخزرية

لقد كان للموقع الجغرافي الذي تشغله بلاد الخزر أثر بالغ في توطيد أركان هذه الدولة وإعطائها القدرة على بناء كيان مستقل سياسيًّا واقتصاديًّا؛ بل تعدى الأمر إلى أن أصبحت مملكة الخزر قوة طالما وقفت في طريق الفتوحات الإسلامية، فقد توغل العرب والمسلمون بجيوشهم في الأطراف الجنوبية المجاورة للقوقاز خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وكان لهم أن يصلوا إلى البلاد الواقعة في شمال المنطقة الجبلية لتلك الأقاليم، إلا أن نفوذ الخزر التي كانت تهيمن على تلك المناطق الواقعة شمال باب الأبواب (دربند) حال دون ذلك.

وقد نجح المسلمون في بعض الأحيان من توطيد أقدامهم في شمال تلك الجبال على الرغم من وعورتها؛ لكنهم لم يصلوا إلى حلٍّ نهائي للصراع مع الخزر؛ للأسباب التي أوردناها آنفًا من استقلال قوة الخزر وإمكانياتهم المادية والبشرية.

وكان أول القادة العرب المسلمين الذين وصلوا إلى مدينة باب الأبواب هو بكير بن عبدالله الذي أرسل سنة ٢١هـ- ٦٤١م) إلى أذربيجان، ثم تبعه سُراقة بن عمرو وعبدالرحمن بن ربيعة الباهلي[١]، وكان ذلك في عهد الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، إذ تحقق للمسلمين نجاحات كبيرة في تلك المناطق، إذ أقر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بولاية عبدالرحمن بن ربيعة للمناطق المفتوحة وأمره بمتابعة الزحف شمالاً ضد الخزر، ويروي لنا الطبري أن المسلمين آنذاك توغلوا في تلك الأقاليم حتى وصلوا البيضاء التي كانت عاصمة للخزر، وهي نفسها (آتل)؛ إلا أن هذه الرواية يشك بها بعض المؤرخين، ودارت معارك ضارية بين الأطراف، وأبدى فيها المسلمون عجائب في القتال، دعت الخزر أن يفضوا عن قناعة بأن المسلمين لن يموتوا إذ لم يكونوا مخلوقات خارقة للطبيعة، واستمرت الحروب بين الخزر والمسلمين حتى وقعت معركة بلنجر العظمى التي استشهد فيها عبدالرحمن بن ربيعة وعُين مكانه الوليد بن عقبة، وقد قام الوليد بحملة داخل أذريجان وأرمينيا، واستدعى معه سلمان بن ربيعة، وكان معهم نحو أربعين ألف مقاتل، لم يستمر زحفهم على ما كان عليه بسبب تعرضهم لهجمات كبيرة من قبل الخزر أثر تجمعات ونجدات حصلوا عليها، مما اضطر

---

(١) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٢٦٤.

سلمان بن ربيعة إلى سحـب جيوشه والنجاة بهم، وبهذا توقفت الفتوحات الإسلامية بهذا الاتجاه.

ويـروي لنـا الطـبري أيضًا بـأن مسلمة بـن عبد الملك قام بالاستيـلاء على عدد مـن القلاع والبلـدان في أذربيجان، وشق طريقـه حتى وصـل مدينة باب الأبـواب التي كانـت تحت نفوذ الخزر، وهذا حدث سنة ٩٩ هـ- ٧١٧ م[1].

وفي سنـة ٧١٧ م أيام الخليفة عمـر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـام الخزر بهجـوم على المسلمـين الذين كانـوا يسيطرون على إقليـم أذربيجـان، إذ قُتـل عـدد كبـير مـن المسلمـين، اضطر الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى إرسال حاتم بن النعمان لنجدة المسلمـين فهزمهم وأسـر منهم العدد الكبـير. وفي عام ١٠٣هـ - ٧٢١م قـام الخـزر في الهجـوم علـى إقليـم الـلان، فقابلهم المسلمـون بقيادة ثبيـب النهراني في مرج الحجـارة في أرمينيا، إذ دار بينهـم قتالٌ عنيفٌ كان الخـزر في ثلاثين ألفًا من الجند استطاعـوا أن يوقعوا الخسائـر بالمسلمين الذيـن انسحبوا إلى بـلاد الشام، مما اضطر الخليفة يزيد بـن عبد الملك إلى تعيين الجراح بن عبد الله الحكمي واليًا على أرمينيا، وأمره أن يحارب العـدو من داخل أرضـه، وكان ذلك سنة ١٠٤هـ - ٧٢٢م، وقد

(١) المدور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٩٧ - ٢٠٤.

زحف الجراح على رأس جيش قوي وأخذ يفتح البلاد حتى وصل إلـى بلنجـر وحاصرها واستولـى عليها بعد قتـال عنيف، وغنم المسلمون غنائم لم يسبق لهـا مثيل من الأموال وغيرها. وزحف الجـراح إلى حصن مدينـة ويندر إذ استسلـم أهلها دون قتال، وبعـد وفاة يزيد قام خليفتـه هشام بإقرار الجـراح في منصبه وبعث يعده بإرسال مساعدات لتقوية موقعه هناك، وبعد حملات ضد الخزر انتصر فيهـا الجراحتثم استدعاؤه من قبل الخليفة وإسنـاد ولاية أرمينيـا وأذربيجان لأخيه مسلمـة بن عبد الملك، فقام مسلمة بإنابة الحارث بن عمرو ليقود الجيوش ضد الخزر، وفعلًا قام عام ١٠٧هـ باحتلال بعض أراضيهم، إلا أنهم في عام ١٠٨هـ قاموا بحملة معاكسة[١] بقيادة ابن الخاقان هُزم الخزر وفقدوا خسائر كبيرة، وقُتل منهم ما لا يُحصى[٢].

وفي سنـة ١١١هـ عاد الجراح إلـى ولايته ثانية فزحف نحو عاصمة الخزر، وقام باحتلالهـا، إلا أن عام ١١٢هـ-٧٣٠م كان عام نكبة علـى المسلمين، إذ قام الخـزر بالهجوم على المسلمين بجيشـ تعداده أكثر من ثلاث مئة ألف رجل، دارت بين الطرفين معـارك دامية استشهد فيها خلـقٌ كثير من المسلمين ومن بينهم الجـراح نفسه، وكانت تلك نكبة أثرت في نفوس المسلمين ودفعت

---

(١) المسعودي، مصدر سبق ذكره، ج ٢ ص ٤٣، وكيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥ – ٩٠.

(٢) ابن أعثم، مصدر سبق ذكره، ص٢٤٧ – ٢٧٩.

بالخـزر للاستيلاء على أذربيجان وديـار بكر وأطراف الموصل، عندهـا اضطر الخليفة إلـى إرسال سعيد ابـن عمرو الحرشي الذي قـام برد الخزر والزحـف نحو ديارهم ودمَّـر حصونهم، وتكـررت انتصارات المسلمين علـى الخزر في مواقع عديدة، قُتل فيهـا من الخزر ما يزيـد على عشرة آلاف، وهـرب الباقون[1]، وهكذا استمر المسلمون بزحفهم باتجاه أقاليم الخزر حتى وصلوا إلـى سمندر، وعند ذلك علم المسلمون بأن أعدادًا لا تحصى من الخزر تجمعـت لغزوهم، فآثـروا الانسحـاب ليتحصنوا بالمدن الإسلامية، وكان على رأس جيش الخزر الخاقان نفسه، إذ جُرح في المعركة وهرب بجيشه، وحُسم الموقف للمسلمين[2].

وكان حسـم الموقـف لصالـح المسلمـين عامـلًا مشجعًـا للتخطيـط في السيطرة على الأقاليم المتاخمـة لمناطق استقرار الجيوشـ الإسلامية؛ ممـا دفع مسلمة بن عبدالملـك إلى إعادة تنظيـم قواتـه بشكل كامـل، وأوجد أحيـاءً خاصـةً للدمشقيين والكوفيـين والجزريـين والحمصـين، وبنـى مخـازن للأغذيـة والأسلحـة، وعين لها واليًا، ووضع لهـا تحصينات وأبواب حديد تحسبًـا لحـرب مقبلـة مع الخـزر، بعدها قـام مسلمـة بتسليم الأمـور إلى مـروان بن محمد وعاد إلى الشـام. وفي عام ١١٤هـ قام مروان بن محمـد بحشد جيش من أربعين ألف رجل وزحف

(١) ابن الأثير، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨، واليعقوبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦.
(٢) البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨ – ١٣٢.

مجتازًا بلنجر ومتوغلًا في بلاد الخزر مسيطرًا على مدن عديدة بعد أن قتل وأسر الكثير وغنِم أموالًا لا تُحصى.

بعدها عُين مروان واليًا على أرمينا، وبعد عامين من ولايته واستقراره قام بإعداد جيش يتألف من مئة وخمسين ألف رجل، وبخطة مُحكمة زحف على رأسه عبر ممرات دريل، وبالوقت ذاته زحف جيش آخر تحت لواء أبي يزيد أُسيد بن ظافر السُّلمي، والتقى الجيشان في سمندر، وجرى عرضٌ عظيم للقوات الزاحفة لاسيما بعد الانتصارات التي أحرزتها في هذه المناطق، مما اضطر خاقان الخزر إلى الهروب والانسحاب نحو الجبال، ووصل مروان إلى مشارف العاصمة، لكنه لم يدخلها، وانحرف نحو الشمال على طول الضفة اليمنى لنهر الفولغا التي تسكنها قبائل بلرطاس والبلغار؛ إذ سيطر المسلمون على هذه الأقاليم وأسروا عشرين ألف أسرة[1]، وبعدها قاموا بإجلاء القبائل الأسيرة نحو الجنوب، واستمر المسلمون بملاحقة جيوش الخزر تحت قيادة (هزار طورخان) حتى عبروا نهر الفولغا[2]، فاستعملها المسلمون للعبور؛ مستعملين الخطط والفنون العسكرية في التمويه والاستدلال على إمكانيات العدو

(١) ابن أعثم، العلامة أبو محمد أحمد الكوفي، الفتوح، مجلد (٧ – ٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا سنة طبع، ص ٢٣٧.

(٢) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.

ومعسكراتــه، ممــا دفع بخاقــان الخــزر إلى طلــب الصلح من المسلمــين، فعرض عليــه مروان خياريــن واضحــين الإسلام أو السيــف، فاختــار الخاقان الإسلام وطلــب في رسالة إلى مروان أن يبعــث مــن يعلمــه الإســلام، فأرســل إليــه نــوح بــن الثائب وعبدالرحمن الخولاني، عندها أعلن الخاقان إسلامه[1]، إلا أن عــودة مروان إلى دمشق بعد ظهور الخلاف السري بين الأمويين والعباسيــين ودخول الجيش الإسلامي بحــروب دامية في شمال جبــال البارانس وفيما وراء جبال القوقــاز وخسارة المسلمين في معركــة بلاط الشهداء أعطت هــذه الأحداث للخزر الفرصة في استعــادة قواهم وترتيب أوضاعهــم العسكرية، لتقف الحملات الإسلامية الكبرى على الدُون والدنيبر وجميع مدن شرق أوروبا، ولعلــه مــن الممكن قوله إن إســلام الخزر لم يكن وقــت ذاك إلا للضائقة السياسية والعسكرية التي أوقعوا بها أمام المسلمين[2].

وعندما تمكن العباسيــون سنة ١٣٤هـ- ٧٥١م من توطيد أقدامهم في إقليم الهنــد النائي وأُلحقت الهزيمة بممثل الحكم السابق منصور بن جمهور فهرب خليفة منصور إلى بلاد الخزر، وهــذا يدلنا على أن دولة الخزر كانــت مستقلة بتلك الآونة، وفي

(١) البلعمي نقلًا عن دنلوب مصدر سبق ذكره ص ١٢٤ – ١٣٠.

(٢) المصــدر نفســه، ص ٥٤١، وابن فضــلان، مصدر سبق ذكره، صــ ٣٠٧ والبلاذري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩، وابن الأثير، السنة ١١٤، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤ – ١٢٥.

سنــة ١٤١هـ - ٧٥١م تولى يزيد بن أُسيــد السلمي آرمبنيا أيام المنصــور العباســي، وقد شجــع المنصور يزيــد بمصاهرة ملك الخــزر، وفعلًا تزوج يزيد من أميرة خزريــة، إلا أنها توفيت في أثنــاء ولادتهــا، وأثارت هذه الحادثــة شكوكًا لدى الخــزر بأنها قتلت، فزحفــوا نحو أراضي الخلافة العباسيــة، وانسحب يزيد تجنبًا للصدام، إلا أن الخليفة المنصور بعث قوة قوامها عشرون ألفًــا من أهل الشام وأهل الجزيــرة، إلا أنها لم تُجْدِ نفعًا، فعزز الخليفــة الموقف بقوة أخرى استطاعت إيقاف الزحف الخزري، أما في زمن الخليفة هــارون الرشيد والخلفاء الذين جاؤوا قبله فــإن الهــدوء كان يسود العلاقات الخزريــة الإسلامية، وأن ثمة محــاولات لتطبيــع العلاقــات بين الطرفــين قد قامــت من دون جــدوى، وقــد شهــدت خلافــة هــارون الرشيــد اضطرابات في أرمينيا عنــد ثورة الأرض إثر وفاة المهــدي وتمردهم على حكم الهــادي، إلا أن الخزر قد لزموا الهــدوء ولم يصدر منهم حيال خلافة العباسية أي تمرد أو اضطراب(١).

ثانيًا: العلاقات الخزرية البيزنطية

لقد مرَّ بنا الحديث عن لجوء أعداد كبيرة من يهود بيزنطة إلــى يهــود الخزر، وكان السبب من هجرة هــؤلاء ما يعانونه من

(١) ابن أعثم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٥ – ٣٨٥.

ضغط عقائدي يتمثل في إجبارهم على اعتناق المسيحية، وتذكر لنا المصادر بأن أعدادًا كبيرة قد تعرضت لمثل هذه الممارسات من ملك الروم، ويذكر لنا المسعودي قوله: «وحقيقة الأمر أن ملك الروم الحالي ٣٣٢هـ - ٩٤٣م أجبر اليهود في مملكته على اعتناق المسيحية، ومن ثمَّ فرَّ كثير من اليهود من بلاد الروم إلى بلاد الخزر»، وتشير هذه العبارة التي تذكر أحداثًا بعد مئتي سنة من تحول الخزر إلى اليهودية بأن بلاد الخزر كانت ملاذًا للفارين من اضطهاد روما لهم، وأن أعدادًا كبيرة من اليهود كانت تلجأ إلى الخزر قبل سنين من هذا التاريخ، أي قبل انتقالهم إلى الديانة اليهودية، فكان لهؤلاء اللاجئين أثر كبير في موطنهم الجديد، لاسيما وهم يحملون ثقافات وفنونًا أرفع من ثقافات الشعوب المضيفة لهم، فكان لا بد لأثرهم أن يظهر بين طبقات المجتمع الخزري، إذ جلبوا معهم أنواعًا من الفنون والحرف البيزنطية والطرق المتقدمة في الزراعة، ويذكر لنا ابن النديم في كتابه الفهرست[١] أنهم جلبوا معهم الأحرف العبرية المتقنة، ويبدو أن الكتابة العبرية انتشرت من بلاد الخزر إلى البلاد المجاورة، وقد تحدث المؤرخون عن صلات بين الخزر والبيزنطيين في حوالي ٦٩٥م أيام جستنيان الثاني بن قسطنطين الرابع الذي تم خلعه ونفيه إلى بلاد القرن، فاستطاع

(١) ابن النديم مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩.

هنـــاك أن يقابل خاقان الخزر وتــزوج أخته، وبدأ يُعلن نواياه في استرداد عرشه في بيزنطة، ممــا دفع الإمبراطور البيزنطي أن يبعــث برسائل متواليــة إلى خاقان الخزر يعرضــ فيها مكافآت سخية مقابل جستنيان حيًّا أو ميتًا، واستجاب خاقان الخزر إلى ذلك، إلا أن جستنيان شعر بالمؤامرة ففر ولجأ إلى ملك البلغار، ثــم استطاع أن يعيد عرشه في رومــا، ويستدعي زوجته الخزرية وولده إلى بيزنطة.

ثــم قام سنة ٧١٠م بتجهيز أسطــول كبير حمل على ظهره مئــة ألف مقاتــل، وأمر بــه أن يتجه إلى منفاه الــذي احتفظ له بمشاعر العدائيــة نتيجة المعاملة التي لقيهــا هناك، ولاسترداد أراض انتقلــت إلى أيدي الخزر، وعلى الرغــم من انتصاراتهم التــي حققوهــا من خلال هذا الغــزو إلا أن غرق عــدد كبير من الأسطول المحمل بالجند والأسرى الذين عادوا إلى بيزنطة، قد قلب النصر إلى هزيمة، ثم حدثت محاولات صلح بين الطرفين، إلا أنها باءت بالفشل.

واستمــرت الغــارات مــن الروم على هــذه البلــدان، إلا أن الخزر كانوا ثقــلاً عسكريًّا كبيرًا أمام الروم، و تتوالى الأحداث في بيزنطــة ليتولى عرش الإمبراطورية ليــو الأيزوري الذي زوَّج ابنــه قسطنطين أمــيرة خزرية، وحكم قسطنطــين سنة ٧٤٠م، ثم جــاء بعد ولده (ليــو الرابع) الذي لُقب بالخــزري، إذ كانت

أمه مــن الخزر، وقد تزوج هو أيضًا بأمــيرة خزرية وعقد حلف مصاهــرة مع خاقان الخزر، تحسنت العلاقات إلى درجة كبيرة بــين الدولتين إلى حد أن خاقان الخــزر طلب من بيزنطة تقديم العــون لبناء حصن علــى الدون، وقام الإمبراطــور وقتها بتلبية طلبه وأرسل بعثة قامت ببناء الحصن، وتشير مصادر أخرى أنه في سنة ٨٣٣م قام رسول خزري بزيارة القسطنطينية يناشدون البيزنطيــين لبناء ساركيــل، وهو حصنٌ يحمــي عاصمتهم من الشمــال، كما وصــل في أواخر القرن نفسه رســول من الخاقان إلــى الإمبراطــور ميخائيل الثالــث يتساءل عن إمكانيــة إرسال رجل يشرح له المسيحيــة، فأرسل له رجلًا يدعى قسطنطين، إذ أقام قسطنطين مدة من الزمــن لقي خلالها الخاقان وعاد إلى القسطنطينيــة، ونحن هنا نقول ربمــا كان استدعاء قسطنطين لأجــل المناظرة مع اليهودي والمسلم التــي أُشير إليها سابقًا عند تحــول الخزر إلــى اليهودية، لاسيما وأن المــدة التي حدثت فيها المناظرة كانت قريبة من أيام تحول الخزر إلى اليهودية[١].

ثالثًا: العلاقات الخزرية الروسية

لم تكــن هناك علاقات قائمة بين الشعب الخزري والشعب الروسي؛ ذلك لأن الفواصل الطبيعية والجغرافية قد تكون سببًا

(١) غريمــال، بيــار، وآخــرون، موسوعة تاريخ أوروبــا العام، ترجمة أنطــون أ. الهاشم، منشورات عويدات، لبنان، بيروت، ١٩٩٥، ص ٣٦٠ – ٣٧٠.

في ذلك، إذ لم تكن بين هذين الشعبين قواسم مشتركة أو امتداد عرقي يجمع بينهما، وقد مرَّ بنا الحديث عن طلب ملك الخزر من بيزنطة مساعدته في بناء حصون لبلاده من ناحية الشمال ليحتمي بها من هجمات الروس.

ومن هذا نستنتج أن بلاد الخزر كانت تتعرض لهجمات من قبل الروس مما دفعهم إلى بناء ما يحمون به أوطانهم، وقد وردت فقرة من رسالة ملك الخزر إلى الوزير حسداي يقول فيها: «بفضل معونة المولى جلَّ شأنه فإني أتولى حراسة مصب النهر (الفولغا)، ولا أسمح بالمرور للروس الذين يفدون في سفنهم لغزو أرض العرب...، وإني أقاتلهم -أي الروس- في حروب عنيفة؛ ذلك لأني إذا تركت لهم الحبل على الغارب فسوف يدمرون أرض إسماعيل -يقصد العرب- حتى بغداد نفسها»[1].

من هذه العبارة تبدو الخصومة واضحة ومتأصلة بين الخزر والروس، ويروي لنا توينبي قوله: «في القرن التاسع، وهو القرن الذي اعتدى فيه الروس على الخزر وعلى الروم الشرقيين، كان الإسكندنافيون يغيرون ويفتحون و يستعمرون جزءًا من الأرض شكَّل قوسًا هائلًا امتد في نهاية الأمر نحو

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨.

الجنـوب الغربي إلـى أمريكا الجنوبية، ونحـو الجنوب الشرقي إلى بحر قزويـن»[1]. ويبدو أن الشعوب التي تسكن شمال الخزر كانـت خليطًا من الفايكنغ الشرقيـين والفايكنغ الغربيين الذين أطلـق الروم علـى قسم منهم بالروسـ، وهؤلاء كانـوا يتغلغلون في المسالـك المائية الرئيسة لأوروبا، ويغـيرون على مدن الموانئ للنهب والسلـب منحدرين في نهر الدينبر وعـبر البحر الأسود، واختلفت التسميات بين ما أطلقه العرب على هؤلاء (الفرنجة) وما أطلقه الـروم بأنهم الروس، ويبـدو أن الروس كانوا مزيجًا فريـدًا حتى بـين أشقائهم من الشعوب فقـد جمعوا بين صفات القراصنة واللصوص وسمات التجار المخادعين الذين يتاجرون بشـروط يفرضونها بالسيـف، ولطالما كان الصقالبة وغيرهم ضحايـا لهـؤلاء، وهكذا كانـت قوافل الروس المبحـرة جنوبًا في فصل الصيف بمثابة أساطيـل تجارية وحربية في الوقت نفسه؛ إذ تقـوم بالعمليتين معًا، ويحدثنا المسعـودي عن قوة تألفت من خمس مئة سفينة، تحمـل كل واحدة مئة شخص قد دخلت بحر قزوين من الفولغا سنة ٩١٢م[2].

وكان لهـذه الممارسات من الروسـ دافعًا قويًّا لقيام الخزر بمحاولات تفادي هؤلاء ببنـاء الحصون وتبادل السفارات، فقد

(١) توينبي، مصدر سبق ذكرهن ص ٣٦.

(٢) المسعودي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧

كانت العلاقات بين الطرفين تتحسن ببطء شديد، وقد اجتهد الخزر بطرائق عديدة لبناء العلاقات مع الروس في أروقة التجارة والقنوات السياسية، كما أن الخزر استطاعوا أن يؤثروا في ثقافات الروس تأثيرًا كبيرًا من خلال الاحتكاك الثقافي المتبادل، وأن تتحول سذاجة الروس إلى ثقافات اجتماعية أفضل بكثير مما كانوا عليه، وقد ظهرت تلك الأمور من خلال العادات والتقاليد المكتسبة لدى الروس حتى شملت الألقاب والأسماء لحكامهم وملوكهم، فأصبحوا يلقبون حكامهم (خاقان الروس) [١]، ويذكر ابن فضلان أنه كان للروس مراكز للتجارة في آتل عاصمة الخزر، وكانت هناك جالية من اليهود الخزر في كييف[٢].

ومما يؤيد لنا أن الشعب الروسي قد تأثر بالثقافة الخزرية ما يكتبه المؤرخون الروس أنفسهم بأن مدينة كييف القديمة تدين بالكثير للشعوب الخزرية، وهذا ما كان قد كتبه المؤرخ الروسي أرتامونوف في أحد كتبه سنة ١٩٣٧م، وهذا الكتاب كان قد نشرت فيه مقالات عدة من هذا القبيل؛ ومن خلال حديثه عن تاريخ الخزر القديم[٣]، كما أن العلاقات الروسية

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٩٢.

(٢) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.

(٣) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥ – ١١٨.

الخزرية بدأت بالتطور والاندماج بأسلوب يختلف عن الماضي الذي كان الهدف منه هو معاهدات الصلح وتجنب الحروب بين الطرفين[1].

لذا فإننا نجد أن تطورًا قد حدث إلى حدٍّ ما في فرض الهيمنة على المناطق المحيطة للدولتين؛ فبعد أن كان الخزر وحدهم يفرضون الرسوم والأتاوات والضرائب على تجار الأقاليم المجاورة، نرى أن ذلك قد أصبح يتقاسمه الطرفان، لاسيما الأتاوات المفروضة على الشعوب السلافية، ثم إن هناك بعض المدن التي كانت تحت نفوذ الخزر قد تنازلوا عنها للروس أمثال المدن الواقعة على نهر الدنيبر ومن أهمها مدينة (كييف) التي أصبحت فيما بعد عاصمة الروس، واستمرت الأحوال في تقوية شأن الروس وعلى حساب الخزر حتى تغيرت العلاقة الروسية الخزرية التي كان لحروب الروس والبيزنطيين لها الأثر البعيد في ذلك، وتذكر سنة ٩٦٥م الحملة التي قام بها الروس على بلاد الخزر وسيطروا على كثير من المدن والإمارات التابعة لهم، مما أفقد سلطتهم عليها وعلى الأقاليم الممتدة أدنى نهر الفولغا وحول بحر قزوين مثال: أذربيجان وجيلان وشروان وطبرستان وجورجان، إلا أن بعض الطرق التي كانت تؤدي

---

(١) الشمالي، نصر والدجاني، هشام، الظروف التاريخية للهجرات اليهودية، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩٠، ص ٢٥ – ٣٠.

إلى بحر قزوين عبر دلتا الفولغا بقيت تحت سيطرة الخزر[1]، ويروي لنا المسعودي وقائع حدث بالغ الأهمية والخطورة، هو أن الروس طلبوا من ملك الخزر أن يسمح لسفنهم بعبور البوغاز إلى بحر الخزر مقابل إعطائه نصف ما سيحصلون عليه من غنائم، وقد منحهم الإذن، «وسفك الروس الدماء وقتلوا النساء والأطفال، وسلبوا الغنائم»[2].

ومنذ تلك الغزوة – الروسية البيزنطية – التي أشار إليها المؤرخ البيزنطي (سيدرينوس)، فقدت خازاريا إلى الأبد ذلك الشكل البدائي الجنيني للدولة، وغاب ذكرها[3]، وقد حدث ذلك عبر الانهيارات الكبرى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الإسلامي، وأمام الموجات المغولية العاصفة والمتتابعة في أواسط آسيا وغربها، إذ اتجه تيار قوي من تلك الموجات المغولية إلى مناطق الأقوام التركية والسلافية، وبلغ قلب روسيا وأوكرانيا؛ ونتيجة لذلك حدثت حركة كبرى من الهجرات من الأقوام الواقعة على طريق الغزوات المغولية، ومن هذه الهجرات الكثيرة كانت هجرة يهود الخزر.

---

(١) شمالي، نصر، ملاحظات أساسية حول تاريخ المسألة اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص ١١٧ – ١١٨.

(٢) الشمالي والدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.

(٣) شاكر، عبدالرحمن، دولة الخزر الجديدة (إسرائيل)، دار مصباح الفكر، لبنان، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٥ – ٣٦.

لقد اندثرت خازاريا تمامًا، من دون أن ينتبه أحد لاندثارها، عندما انهار النظام الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية، وفي المجتمع المسيحي البيزنطي أيضًا؛ لأنها كانت دولة تتنفس من رئة تلك المجتمعات المتحضرة، ولم تكن تمتلك رئتها الخاصة بها[١].

رابعًا: العلاقات الخزرية بالأندلس

لقد مرَّ بنا في المباحث السالفة ما جرى بين (حسداي ابن شبروط) وزير الخليفة الناصر في الأندلس، وبين (يوسف) ملك الخزر؛ إذ كان الحاخام (حسداي) من يهود الأندلس الذين يسمون (السفرديم)[٢]، وهذه التسمية جاءت

(١) بيبتي، جون، الصهيونية لعبتها أمريكا، دار النشر للجامعيين، لبنان، بلا سنة طبع، ص ١٧ – ١٨.

(٢) يقسم اليهود في العالم إلى قسمين: سفارديم وأشكنازم يهود الشرق، وهم من رعايا الدولة العثمانية، وأصل هؤلاء من جزيرة إيبريا، وعندما طردوا منها لجؤوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقيا، وكانوا يتكلمون (اللادنيو)، ثم تكلموا العربية، والتحق بهم عدد كبير من يهود المسارانو بعد طردهم من إسبانيا، وكانت نسبة كبيرة منهم تمتلك رأس المال الذي يؤهلها لإقامة شبه تجارة دولية استطاعت من خلالها السيطرة على الحياة الاقتصادية في أوروبا وغيرها، وللسفارديم طقوس وعبادات تختلف عن غيرهم من اليهود، كما أن عبريتهم تختلف عن عبرية الأشنكازيم، وهناك عداء تقليدي بين الاثنين، إذ يمثل السفارديم الطبقة الاستقراطية للمجتمع اليهودي، وقد يتسبب الحرج لهم باستقرار الأشكنازيم في مناطق سكناهم، وكانوا لا يتعبدون معهم ولايتزاوجون بينهم، ويحلو لهم الاحتفاظ بمسافة بينهم، إلا أن هذا الأمر قد انقلب على عقب لاسيما بعد قيام دولة إسرائيل وتحول السفارديم إلى أقلية تتسلط عليها الجماعات الإشكنازيمية. =

مـن أصل الكلمـة بالعبرية (سفاراد)، وهـؤلاء اليهود هـم من سـكان إسبانيا القدمـاء، ويتكلمون لغة إسبانيـة عبرية تسمى (الرادينـو)، وهم يختلفون عن الصنف الآخر من اليهود الذين يسمون (الأشكنازي)، وهذا اللفظ ينطبق على اليهود الحديثي النشـأة الذين جاؤوا من أقاليـم نهر (الراين)، وهؤلاء طبقًا لرسالة يوسف يكون جدهم (بولان)[1].

مـن هذه المقدمة يتبين لنـا بأنه ليس ثمة علاقة بين يهود إسبانيـا ويهود الخزر مـن النواحي العرقيـة أو المواطنة أو أي علاقـة مشتركـة قد تكـون مصيريـة أو شبه ذلك، لقـد بدأت العلاقـة برسالة من الوزيـر حسداي يستفسر بهـا عما فوجئ بسماعـه من أن مملكة تسمى الخزر تُدين باليهودية، ومع أنه من اليهود المتزمِّتين والمتابعين لأخبار وأحوال الأقليات اليهودية

= أمـا الأشكنازيم فهم يهـود الغرب، وهم أساسًا يهود أوروبـا (روسيا و بولندا) الذيـن يتحدثون (اليديشـ)، وتعود أصولهم إلى الألمانية، ويعـد هؤلاء من الرعايا الأوربيـين، وحينمـا يهاجر هـؤلاء إلـى هولندا وإنكلـترا أو الولايـات المتحدة كانت المجتمعات المضيفة لهم تنظر إليهم على أنهم متخلفون، فتحصر بهم المهن الواطئة كالعتالـين والباعـة المتجولـين وصغـار المرابين، وكانـوا يحضرون معهـم الأمراض الاجتماعيـة التـي سببـت لهـم بغض تلـك المجتمعـات المضيفـة كالدعـارة والغش التجـاري، وقد ظهـرت جميع الحـركات الفكرية الحديثة في صفوفهـم مثل: حركة الاستنارة، واليهودية المحافظة، والرياسبـورا، والبوندا، وأخيرًا الصهيونية. راجع: النعيمي، أحمد نوري، اليهـود والدولة العثمانية، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٩٠، ص ٧٢.

(١) كيستلر مصدر سبق ذكره ص ٦٧.

بالعـالم، وبحكم وظيفته الدبلوماسية، فمن المفترض أن يكون له علمٌ بهذا الشعب اليهودي الكبير.

لكنه عندما وصلـه الخبر من قـوافل تجارية بيزنطية نال هـذا الخبر اهتمامـه، فقام بإرسـال اثنين من يهـود الأندلس هما الحاخام يهـودا بن مائيير بن ناثان، والحـاخام يوسف بن هجريس، وحملهما رسالة إلى ملك الخزر، وهناك رواية أخرى أنـه أرسل رجلًا اسمـه مـار إسحق بـن ناثان إلى القسطنطينية وأمـره أن يتابـع طريقه من هناك إلى الخـزر، لكنه بحسب ما أوردت المصادر التاريخية لم يصل وعاد الأندلس[1].

ثـم قام حسداي بدراسة إمكانية توصيـل الرسالة إلى بلاد الخزر عبر القدس، فبلاد الرافدين فأرمينيا، إلا أن حضور اثنين مـن اليهـود السقالبة سهل لـه ذلك، إذ عرضا لـه خدماتهما في إيصال ذلك، وبالفعل وصلت الرسالة وتسلمها ملك الخزر، وكان مضمونهـا أسئلـة واستفهامات عن شعب الخـزر ونظام حكومته وجيشـه، ومن أي أسبـاط بني إسرائيل هم، حيـث إنه كان يظن أن هـؤلاء (إحدى قبائل بني إسرائيـل الضائعة)، ولما كانت هذه الأسئلـة في موقف إحراج لملك الخزر، فبلا شك إن أجوبتها كانت أجوبة غير شافية، وقيل إن فيها من عدم الصحة ما لا يحتاج إلى

(١) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠ – ١٩١.

نقاش أو عـودة للماضي، فقد وردت بعض العبارات التي أدهشت الوزيـر حسداي عندما قال له الملك يوسـف: «إن ما أخبرتنا عن بلادك (أي الأندلس) وأصل ونسب ملكك قد وصل إلينا من قبل، فلقـد جرى تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا، وهذه الأمور محفوظة في كتبنا ومعروفة من من جميع الشيوخ في بلادنا وفي جميع بلاد الشرق حسبما ذكرت، وكما أننا سنجدد الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين آبائنا ونورثها لأبنائنا».

لقـد حـاول الملك يوسـف أن يجيـب عن أسئلـة الحاخام حسداي بطريقة فيها شيءٌ من التمويه عن واقع مملكته وأصول شعبـه، فجـاءت الإجابة تحتـوي على فقـرات تنم عـن انعدام اللون اليهودي والأسلـوب المتعارف عليه في المراسلات بين أبناء الطوائـف اليهوديـة، ثم إدراج مـا لم يكن منطقيًّـا، فضلًا عن عبـارات الغموض والهجوم العنيـف على الإسـلام والمسلمين، فنقـرأ مثلًا ما يقولـه: «منذ ذلك اليوم الذي اجتمـع فيه آباؤنا على هذه الديانة، أخضع رب إسرائيل جميع أعدائهم لهم، وأذل كل أمـة ولسان من حولهم من ملـوك إدوم وملوك بني إسماعيل وجميـع ملـوك الأمم، وما مـن إنسان يستطيـع أن يتصدى لهم وكانوا جميعًا يدفعون الجزية له»(١).

(١) ابـن فضلان، مصدر سبق ذكره، صـ ٤٨، وثيوناتس، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٥.

كما أن الرسالة كانت خالية من عبارات بالعبرية أو إشارات من التوراة أو التلمود أو أنها متأثرة بأدبيات الديانة اليهودية، ويواصل الملك يوسف في حديثه، فيروي كيف ظهر له الملاك وأمره أن يشيد مكانًا للعبادة يمكن للرب أن يقيم فيه؛ لأن السماء والسماوات التي تعلوها ليست متسعة لتحويه، وتحتوي الرسالة على عرضٍ لهيمنة الخزر على الأقاليم المحيطة بهم وأنهم يجمعون الذهب والفضة من خلال الغارات التي يغيرونها عليهم.

ثم يواصل فيقدم بيانًا لسلسلة نسبه وأصل سلالته، وعلى الرغم من أنه يهوديٌّ متعصبٌ فهو لا يرجع بأصله إلى سام، بل يرجعه إلى يافث الابن الثالث لنوح، إذ يقول: «لقد عثرنا في سجلات الأسرة التي تركها آباؤنا أنه كان لتارجوما عشرة أبناء، وإن أسماء ذريتهم هي كالآتي: أودجور - دورسو - آفار - هون - بازل - تارينساخ - خزر - زاجور - بلغار - سابير - وإنني نحن أبناء خزر أي الذرية السابعة).

ثم يورد بعض الفتوحات الحربية التي قام بها أسلافه، وما قاموا به من إصلاح للقانون وبناء للمعابد والمدارس وطرد السحرة وعبدة الأوثان، ولم يذكر المؤرخون أنَّ علاقات قامت بين الخزر ويهود الأندلس سوى المراسلات التي اقتطفنا مقاطع منها؛ إذ إن يهود الأندلس كانوا ينعمون في ظل الخلافة الإسلامية، ولم تربطهم بيهود الخزر روابط رسمية أو مصيرية

لعدم وجود مصير مشترك للطرفين سوى الذي حصل لهم بعد سقوط الخلافة الإسلامية[1].

خامسًا: علاقة الخزر بالسلاجقة

يُعد السلاجقة المؤسسون الحقيقيون لتركية الإسلامية، وهم فرع من (الغز)[2]، كانوا قد ارتحلوا في أواخر القرن العاشر إلى المدن المجاورة لمدينة بخارى، ثم انطلقوا منها فيما بعد إلى آسيا الصغرى البيزنطية واستعمروها، وكانوا على اتصال وثيق بالخزر، إذ كان (توكاك) والد سجلوق قائدًا في جيش خاقان الخزر، وبعد موته نشأ ابنه سجلوق (مؤسس الأسرة السجلوقية) في بلاط الخاقان، ولكنه كان على غير سيرة أبيه، إذ كان شابًّا طائشًا لم تتوافق تصرفاته مع البلاط الخاقاني، مما اضطر إلى الابتعاد والرحيل عن الإمبراطورية الخزرية[3].

ويذكر لنا ابن العديم بأن سلجوق كان أحد أعيان الخزر والأتراك، يؤيده بذلك أحمد بن فضلان في رسالته إذ يقول: إن

(١) عبد المجيد، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤ – ٧٦.

(٢) الغز إحدى هم القبائل التركية التي تضم أعدادًا كبيرة من البشر، تنطلق بين حين وآخر من أواسط آسيا، وتنحرف نحو الغرب. راجع: رايس، تامارا تالوب، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخوري وإبراهيم الداقوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨، ص ٨٣ – ٩٠.

(٣) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.

العلاقة التي كانت بين السلاجقة والخزر كانت علاقة حميمة، لكنها سرعان ما انقلبت إلى قطيعة، وسبب ذلك اعتناق السلاجقة للدين الإسلامي[1].

بينما يذكر أبوالعلاء بن حسول في كتابه (تفضيل الأتراك) أن سلجوق جد السلاجقة قد تحدى ملك الخزر شخصيًّا وضربه بسيفه، وفي رواية أخرى رماه بدبوسه الذي كان بيده حتى أنهك حصانه ورماه على الأرض منكبًّا على وجهه[2].

أما ابن الأثير فيروي لنا غير ذلك إذ يقول: بأن هذه الحادثة قد حدثت بين (تقاق) أبو سلجوق وملك الترك الذي يدعى (يبغو) وليس مع خاقان الخزر[3].

بينما يروي لنا ابن العِبري أن تقاق كان قائدًا في جيش الخزر، وأن ابنه سلجوق قد تربى في بلاط الخاقان، وقد حدثت بينه وبين الخاقان خلافات اضطره إلى الابتعاد عنه والاتجاه إلى المجرى الأدنى لنهر سيحون، ثم إلى منطقة بخارى، وهذا الرأي يؤيده (بارثولد) في بيانه لأسباب انفصال السلاجقة عن الخزر.

---

(١) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٢، وكيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣.

(٢) زكي، وليد نقلًا عن كيستلر، مصدر سبق، ذكره ص ١٣٢.

(٣) فامبري، أرمينوس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الحاضر، ترجمه وعلق عليه دكتور أحمد محمود الساداتي، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٨٧٢، ص ١٢٧ – ١٤٥.

وتـورد بعض المصـادر التاريخيـة أن أبناء سلجـوق كانوا يحملون أسماء إسرائيلية مثل: ميكائيل وإسرائيل وموسى ويونس وداود، رابطـين بذلك التفاعل الاجتماعـي السلجوقي الخزري، ويـرى بعضهـم أن السلاجقة ربما كانوا يدينـون بالمسيحية قبل أن يعتنقـوا الإسلام، لكـن هذا الرأي يرفضـه بعضهم الآخر، بحجة أن هذه الأسماء لم تكن أسماء مسيحية، وأن سبب تسمي السلاجقـة بها كونهـا أسماء شائعة في تلـك الحقبة الزمنية، وهذا ما اعتاد عليه النـاس[١].

ومـن الناحية السياسية فإن هناك مـن المؤرخين من يرى أحـد أسبـاب اضمحـلال مملكة الخـزر وسقوطها علـى أيدي السلاجقـة[٢]، إذ كانت لهـم أدوارٌ أساسية في تمـرد وانفصال الأقاليـم المجاورة التي كانـت تخضع لنفوذ مملكة الخزر وتدفع لها الضرائب والرسوم وتحمي تخومها من الغزوات والاعتداءات الخارجيـة، إلا أن آخريـن يرفضـون هـذه الفكـرة ويـرون أن

(١) ابن العبري، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠، وبشور، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٢) إسكنـدر، فايـز نجيب، استيلاء السلاجقـة على عاصمة أرمينيـة (آني) (٤٥٦ هـ - ١٠٩٤ م)، دار نوبـار للطباعـة، دار الفكر الجامعي للنشـر، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٧. وفي هـذا الصدد يـروي إسكندر عن المؤرخ المسلم سبـط بن الجوزي أنه في رمضـان (٤٥٦هــ) أن السلطان نظام الملك أوغل في بلاد الخـزر وبلغ فيها مواضع لم تجـر العادة ببلوغها، وفتح بلدًا عظيمًا، وقتل مايزيد على ثلاثين ألفًا، وسبى نحو خمسـين ألف مملوك، وغنم غنائم لا تحصى، وقد عـاد منصورًا، ونزل بعدها إلى (آني) العاصمة الأرمينية... إلخ. ص ٩ – ١١.

السلاجقـة لم يكونوا قوةً توازي قـوة الروس لكي يكون لهم هذا الـدور في إسقاط الإمبراطورية الخزرية، وإن السلاجقة عندما انفصلوا عن مملك الخزر اندفعوا نحو الشرق وفي بلاد ما وراء النهر، ثم في خراسان بعد ذلك أخذوا يتجهون نحو الغرب، وإن هـذه التوسعات بلا شـك تضعف من قوة السلاجقـة المركزية، ولـو كان لهـم مـن القـوة كما ذكـر في خلخلـة وإضعـاف كيان الإمبراطورية الخزريـة لأمكنهم من تأسيس كيان لهم في غرب بحـر قزوين، ثم إن القـوة الموجودة على الفولغا كانت كافية لمنع توسعهم في هذا الاتجاه(1).

(1) ابـن العـديم، أبو القاسم عمـر بن أحمد بن هبة الله زبدة الحلـب، من تاريخ حلب، ج٣،تحقيـق سامي الدهـان، المعهد الفرنسـي، دمشق ١٩٥١، صـ ٢١١، وإسكندر، فايـز نجيب (دكتـور)، أرمينيا بين البيزنطيـين والأتـراك والسلاجقة في مصنف أريستاكيـس اللسيتفرتـي المطبعة العصريـة، الإسكندريـة، ١٩٨٣م، ص ١٠ –١١، وحلمي، أحمد كمال الدين (دكتور) السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار السلاسل، الكويت، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ص ٦٧ – ٦٩.